سورة الفلق

سمى النبي (صلى الله عليه وسلم) هذه السورة : (قل أعوذ برب الفلق). روى النسائي عن عقبة بن عامر قال : اتّبعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو راكب فوضعتُ يدِي على قدمه فقلت : أقرئني يا رسول الله سورة هود وسورة يوسف ، فقال : لن تقرأ شيئاً أبلغ عند الله من (قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس) .

وهذا ظاهر في أنه أراد سورة : (قل أعوذ برب الفلق (لأنه كان جواباً عن قول عقبة : أقرئني سورة هود الخ ، ولأنه عَطف على قوله : (قل أعوذ برب الفلق ((الفلق : 1) قوله : و) قل أعوذ برب الناس ((الناس : 1) ولم يتم سورة : (قل أعوذ برب الفلق).

عنونها البخاري في (صحيحه) : سورة قل أعوذ برب الفلق) بإضافة سورة إلى أول جملة منها .

وجاء في كلام بعض الصحابة تسميتُها مع سورة الناس (المعوّذتين) . روى أبو داود والترمذي وأحمد عن عقبة بن عامر قال : (أمرني رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن أقرأ بالمعوذات (بكسر الواو المشددة وبصيغة الجمع بتأويل الآيات المعوذات ، أي آيات السورتين) وفي رواية : (بالمعوذتين في دبر كل صلاة) . ولم يذكر أحد من المفسرين أن الواحدة منهما تسمى المعوذة بالإفراد ، وقد سماها ابن عطية سورة المعوذةِ الأولى ، فإضافة (سورة) إلى (المعوذة) من إضافة المسمى إلى الاسم ، وَوصف السورة بذلك مجاز يجعلها كالذي يدل الخائف على المكان الذي يعصمه من مخيفه أو كالذي يُدخله المِعَاذ .

وسميت في أكثر المصاحف ومعظم كتب التفسير (سورة الفلق) .

وفي (الإتقان) : أنها وسورة الناس تسميان (المشَقْشَقَتَيْن) (بتقديم الشينين

على القافين) من قولهم خطيب مُشَقشق ا هـ . (أي مسترسل القول تشبيهاً له بالفَحل الكريم من الإبل يَهْدِر بشِقْشَقَةٍ وهي كاللحم يبرز من فيه إذا غضب) ولم أحقق وجه وصف المعوذتين بذلك .

وفي (تفسير القرطبي) و (الكشاف) أنها وسورةَ الناس تسميان (المقشقشتين) (بتقديم القافين على الشينين) زاد القرطبي : أي تبرّئان من النفاق ، وكذلك قال الطيبي ، فيكون اسم المقشقشة مشتركاً بين أربع سور هذه ، وسورة الناس ، وسورة براءة ، وسورة الكافرون .

واختلف فيها أمكية هي أم مدنية ، فقال جابر بن زيد والحسن وعطاء وعكرمة : مكية ، ورواه كريب عن ابن عباس . وقال قتادة : هي مدنية ، ورواه أبو صالح عن ابن عباس .

والأصح أنها مكية لأن رواية كريب عن ابن عباس مقبولة بخلاف رواية أبي صالح عن ابن عباس ففيها متكلّم .

وقال الواحدي : قال المفسرون : إنها نزلت بسبب أن لَبيدَ بن الأعصمَ سَحَر النبي (صلى الله عليه وسلم) وليس في (الصحاح) أنها نزلت بهذا السبب ، وبنى صاحب (الإتقان) عليه ترجيح أن السورة مدنية وسنتكلم على قصة لبيد بن الأعصم عند قوله تعالى : (ومن شر النفاثات في العقد ((الفلق : 4) .

وقد قيل : إن سبب نزولها والسورة بعدها : أن قريشاً ندبوا ، أي ندبوا مَن اشتهر بينهم أنه يصيب النبي (صلى الله عليه وسلم) بعينه فأنزل الله المعوذتين ليتعوذ منهم بهما ، ذكره الفخر عن سعيد بن المسيب ولم يسنده .

وعدت العشرين في عداد نزول السور ، نزلت بعد سورة الفيل وقبل سورة الناس .

وعدد آياتها خمس بالاتفاق .

واشتهر عن عبد الله بن مسعود في (الصحيح) أنه كان ينكر أن تكون (المعوِّذتان) من القرآن ويقول : إنما أُمِر رسول الله أن يتعوذ بهما ، أي ولم يؤمر

" صفحة رقم 625 "

بأنهما من القرآن . وقد جمع أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على القراءة بهما في الصلاة وكُتبتا في مصاحفهم ، وصح أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قرأ بهما في صلاته .

أغراضها

والغرض منها تعليم النبي (صلى الله عليه وسلم) كلمات للتعوذ بالله من شر ما يُتَّقَى شره من المخلوقات الشريرة ، والأوقاتتِ التي يكثر فيها حدوث الشر ، والأحوال التي يستر أفعال الشر من ورائها لئلا يُرمى فاعلوها بتبعاتها ، فعلَّم الله نبيئه هذه المعوذة ليتعوذ بها ، وقد ثبت أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يتعوذ بهذه السورة وأختها ويأمر أصحابه بالتعوذ بهما ، فكان التعوذ بهما من سنة المسلمين .

) قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (

الأمر بالقول يقتضي المحافظة على هذه الألفاظ لأنها التي عينها الله للنبيء (صلى الله عليه وسلم) ليتعوذ بها فإجابتُها مرجوة ، إذ ليس هذا المقول مشتملاً على شيء يُكلف به أو يُعمل حتى يكون المراد : قل لهم كذا كما في قوله : (قل هو الله أحد ((الإخلاص : 1) ، وإنما هو إنشاء معنى في النفس تدل عليه هذه الأقوال الخاصة .

وقد روي عن ابن مسعود في أنه سأل النبي (صلى الله عليه وسلم) عن المعوذتين فقال : (قِيل لي قُل فقلتُ لكم فقولوا) . يريد بذلك المحافظة على هذه الألفاظ للتعوذ وإذ قد كانت

من القرآن فالمحافظة على ألفاظها متعينة والتعوذ يحصل بمعناها وبألفاظها حتى كَلِمة) قُل . والخطاب بقُل (للنبيء (صلى الله عليه وسلم) وإذ قد كان قرآناً كان خطاب النبي (صلى الله عليه وسلم) به يشمل الأمة حيث لا دليل على تخصيصه به ، فلذلك أمر النبي (صلى الله عليه وسلم) بعضَ أصحابه بالتعوذ بهذه السورة ولذلك أيضاً كان يعوِّذ بهما الحَسَن والحُسَيْن كما ثبت في (الصحيح) ، فتكون صيغة الأمر الموجهة إلى المخاطب مستعملة في معنَيي الخطاب من توجُّهه إلى معيّن وهو الأصل ، ومن إرادة كلّ من يصح خطابُه وهو

طريق من طرق الخطاب تدل على قصده القرائن ، فيكون من استعمال المشترك في معنييه . واستعمال صيغة التكلم في فعل) أعوذ (يتبع ما يراد بصيغة الخطاب في فعل) قل (فهو مأمور به لكل من يريد التعوذ بها .

وأما تعويذُ قارئها غيرَه بها كما ورد أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يعوذ بالمعوذتين الحسن والحسين ، وما رُوي عن عائشة قالت : (إن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان ينفث على نفسه في المرض الذي مات فيه بالمعوِّذات ، فلما ثَقُل كنت أنفث عليه بهن وأمْسح بيدِ نفسه لبركتها) ، فذلك على نية النيابة عمن لا يحسن أن يعوذ نفسه بنفسه بتلك الكلمات لعجز أو صغر أو عدم حفظ .

والعَوْذ : اللجأ إلى شيء يقِي من يلجأُ إليه ما يخافه ، يُقال : عاذ بفلان ، وعاذ بحصن ، ويقال : استعاذ ، إذا سأل غيره أن يُعيذه قال تعالى : (فاستعِذ بالله إنه سميع عليم ((الأعراف : 200) . وعاذ من كذا ، إذا صار إلى ما يعيذه منه قال تعالى : (فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ((النحل : 98) .

و) الفلق (: الصبح ، وهو فَعَل بمعنى مفعول مثل الصَّمَد لأن الليل شبه بشَيء مغلق ينفلق عن الصبح ، وحقيقة الفَلْق : الانشقاق عن باطن شيء ، واستعير لظهور الصبح بعد ظلمة الليل ، وهذا مثل استعارة الإخراج لظهور النور بعد الظلام في قوله تعالى : (وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ((النازعات : 29) ، واستعارة السلخ له في قوله تعالى : (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ((يس : 37) .

وربُّ الفلق : هو الله ، لأنه الذي خلق أسبابَ ظهور الصبح ، وتخصيص وصف الله بأنه رب الفلق دون وصف آخر لأن شراً كثيراً يحدث في الليل من لصوص ، وسباع ، وذوات سموم ، وتعذر السير ، وعُسر النجدة ، وبُعد الاستغاثة واشتداد آلام المرضى ، حتى ظن بعض أهل الضلالة الليل إلاه الشر .

والمعنى : أعوذ بفالق الصبح مَنجاةً من شرور الليل ، فإنه قادر على أن ينجيني في الليل من الشر كما أنجى أهل الأرض كلهم بأن خلق لهم الصبح ، فوُصفَ الله بالصفة التي فيها تمهيدٌ للإِجابة .

" صفحة رقم 627 "

عطف أشياء خاصة هي ممَّا شمِله عموم) من شر ما خلق ((الفلق : 2) ، وهي ثلاثة أنواع من أنواع الشرور :

أحدها : وقت يغلب وقوع الشر فيه وهو الليل .

والثاني : صنف من الناس أقيمت صناعتهم على إرادة الشر بالغير .

والثالث : صنف من الناس ذُو خُلُق من شأنه أن يبعث على إلحاق الأذى بمن تعلق به .

وأعيدت كلمة) من شر (بعد حرف العطف في هذه الجملة . وفي الجملتين المعطوفتين عليها

مع أن حرف العطف مغنٍ عن إعادة العامل قصداً لتأكيد الدعاء ، تعرضاً للإجابة ، وهذا من الابتهال فيناسبه الإطناب .

والغاسق : وصف الليل إذا اشتدت ظلمته يقال : غَسَق الليل يغسق ، إذا أظلم قال تعالى : (إلى غسق الليل ((الإسراء : 78) ، فالغاسق صفة لموصوف محذوف لظهوره من معنى وصفه مثل الجواري في قوله تعالى : (ومن آياته الجوار في البحر ((الشورى : 32) وتنكير) غاسق (للجنس لأن المراد جنس الليل .

وتنكير) غاسق (في مقام الدعاء يراد به العموم لأن مقام الدعاء يناسب التعميم . ومنه قول الحريري في المقامة الخامسة : (يا أهل ذا المعنى وقيتُم ضُراً) أي وقيتم كل ضر .

وإضافة الشر إلى غاسق من إضافة الاسم إلى زمانه على معنى (في) كقوله تعالى : (بَلْ مَكْرُ الليل والنهارِ ((سبأ : 33) .

والليل : تكثر فيه حوادث السوء من اللصوص والسباع والهوام كما تقدم آنفاً .

وتقييد ذلك بظرف) إذا وقب (أي إذا اشتدت ظلمته لأن ذلك وقت يتحيّنه الشطَّار وأصحاب الدعارة والعَيث ، لتحقّق غلبَة الغفلة والنوم على الناس فيه ، يقال : أغْدَر الليلُ ، لأنه إذا اشتد ظلامه كثر الغدْر فيه ، فعبر عن ذلك بأنه أغدَر ، أي صار ذا غَدر على طريق المجاز العقلي .

" صفحة رقم 628 "

ومعنى) وقب (دخل وتغلغل في الشيء ، ومنه الوَقْبة : اسم النقرة في الصخرة يجتمع فيها الماء ، ووقبت الشمس غابت ، وخُص بالتعوذ أشد أوقات الليل توقعاً لحصول المكروه .

هذا النوع الثاني من الأنواع الخاصة المعطوفة على العام من قوله : (من شر ما خلق ((الفلق

: 2) . وعُطف) شر النفاثات في العقد (على شر الليل لأن الليل وقت يتحين فيه السحَرة إجراء شعوذتهم لئلا يطلع عليهم أحد .

والنفث : نفخ مع تحريك اللسان بدون إخراج ريق فهو أقل من التفل ، يفعله السحرة إذا وضعوا علاج سحرهم في شيء وعَقدوا عليه عُقَداً ثم نفثوا عليها .

فالمراد ب) النفاثات في العقد (: النساء الساحرات ، وإنما جيء بصفة المؤنث لأن الغالب عند العرب أن يتعاطى السحرَ النساء لأن نساءهم لا شغل لهن بعد تهيئة لوازم الطعام والماء والنظافة ، فلذلك يكثر انكبابهن على مثل هاته السفاسف من السحر والتَّكهن ونحو ذلك ، فالأوهام الباطلة تتفشى بينهن ، وكان العرب يزعمون أن الغُول ساحرةٌ من الجِن . وورد في خبر هجرة الحبشة أن عمارة بن الوليد بن المغيرة اتُّهم بزوجة النجاشي وأن النجاشي دعَا له السوَاحر فنفخن في إحليله فصار مسلوب العقل هائماً على وجهه ولحق بالوحوش .

و) العُقد (: جمع عقدة وهي ربط في خيط أو وَتَر يزعم السحرة أنه سحر المسحور يستمر ما دامت تلك العقد معقودة ، ولذلك يخافون من حَلها فيدفنونها أو يخبئونها في محل لا يُهتدى إليه . أمر الله رسوله (صلى الله عليه وسلم) بالاستعاذة من شر السحرة لأنه ضمن له أن لا يلحقه شر السحرة ، وذلك إبطال لقول المشركين في أكاذيبهم إنه مسحور ، قال تعالى : (وقال الظالمون إنْ تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ((الفرقان : 8) .

وجملة القول هنا : أنه لما كان الأصح أن السورة مكية فإن النبي (صلى الله عليه وسلم) مأمون من أن يصيبه شر النفاثات لأن الله أعاذه منها .

" صفحة رقم 629 "

وأمّا السحر فقد بسطنا القول فيه عند قوله تعالى : (يعلِّمون الناس السحر (في سورة

البقرة .

وإنما جعلت الاستعاذة من النفاثات لا من النفْث ، فلم يقل : إذا نفثن في العقد ، للإِشارة إلى أن نفثهن في العُقد ليس بشيء يجلب ضراً بذاته وإنما يجلب الضر النافثاتُ وهن متعاطيات السحر ، لأن الساحر يحرص على أن لا يترك شيئاً مما يحقق له ما يعمله لأجله إلاّ احتال على إيصاله إليه ، فربما وضع له في طعامه أو شرابه عناصر مفسدة للعقل أو مهلكة بقصد أو بغير قصد ، أو قاذورات يُفسد اختلاطُها بالجسد بعضَ عناصر انتظام الجسم يختلّ بها نشاط أعصابه أو إرادته ، وربما أغرى به من يغتاله أو من يتجسس على أحواله ليُرِي لمن يسألونه السحر أن سحره لا يتخلف ولا يخطىء .

وتعريف) النفاثات (تعريف الجنس وهو في معنى النكرة ، فلا تفاوت في المعنى بينه وبين قوله : (ومن شر غاسق ((الفلق : 3) وقوله : (ومن شر حاسد ((الفلق : 5) . وإنما أوثر لفظ) النفاثات (بالتعريف لأن التعريف في مثله للإِشارة إلى أن حقيقة معلومة للسامع مثل التعريف في قولهم : (أرسلها العراك) كما تقدم في قوله تعالى : (الحمد لله (في سورة الفاتحة .

وتعريف) النفاثات (باللام إشارة إلى أنهن معهودات بين العرب .

عطف شر الحاسد على شر الساحر المعطوف على شر الليل ، لمناسبة بينه وبين المعطوف عليه مباشرةً وبينه وبين المعطوف عليه بواسطته ، فإن مما يدعو الحاسد إلى أذى المحسود أن يتطلب حصول أذاهُ لتوهم أن السحر يزيل النعمة التي حسده عليها ولأن ثوران وجدان الجسد يكثر في وقت الليل ، لأن الليل وقت الخلوة وخطورِ الخواطر النفسية والتفكر في الأحوال الحافة بالحاسد وبالمحسود .

والحسد : إحساس نفساني مركب من استحسان نعمة في الغير مع تمني زوالها عنه لأجل غيرة

على اختصاص الغير بتلك الحالة أو على مشاركته الحاسد فيها . وقد يطلق اسم الحسد على الغبطة مجازاً .

" صفحة رقم 630 "

والغبطة : تمنّي المرء أن يكون له من الخير مثلُ ما لمن يروق حاله في نظره ، وهو محمل الحديث الصحيح : (لا حَسَدَ إلا في اثنتين) ، أي لا غبطة ، أي لا تحق الغبطة إلا في تينك الخصلتين ، وقد بين شهاب الدين القرافي الفرق بين الحسد والغبطة في الفرق الثامن والخمسين والمائتين .

فقد يغلب الحسدُ صبرَ الحاسد وأناتَه فيحمله على إيصال الأذى للمحسود بإتلاف أسباب نعمته أو إهلاكه رأساً . وقد كان الحسد أولَ أسباب الجنايات في الدنيا إذ حسد أحد ابني آدم أخاه على أن قُبِل قربانه ولم يقبل قُربان الآخر ، كما قصّه الله تعالى في سورة العقود .

وتقييد الاستعاذة من شره بوقت : (إذا حسد (لأنه حينئذ يندفع إلى عمل الشر بالمحسُود حين يجيش الحسد في نفسه فتتحرك له الحيل والنوايا لإلحاق الضرّ به . والمراد من الحسد في قوله : (إذا حسد (حسد خاص وهو البالغ أشد حقيقته ، فلا إشكال في تقييد الحسد ب) حسد (وذلك كقول عمرو بن معد يكرب :

وبَدَت لميسُ كأنَّها

بَدْرُ السماءِ إذا تَبَدَّى

أي تجلى واضحاً منيراً .

ولما كان الحسد يستلزم كون المحسود في حالة حسنة كثر في كلام العرب الكناية عن السيد بالمحسود ، وبعكسه الكناية عن سيّء الحال بالحاسد ، وعليه قول أبي الأسود :

حسدوا الفتى أن لم ينالوا سعيه
فالقوم أعداءٌ له وخصوم
كضرائرِ الحسناء قُلْنَ لوجهها
حَسَداً وبُغضاً إنّه لَمشُوم

وقول بشار بن بُرد :

إن يحْسدوني فإني غيرُ لائمهم
قَبْلي من الناس أهلُ الفَضْل قد حُسِدوا
فدَام لي ولَهُم مَا بي وما بِهِمُ
وماتَ أكْثَرُنَا غَيْظاً بِمَا يَجِد